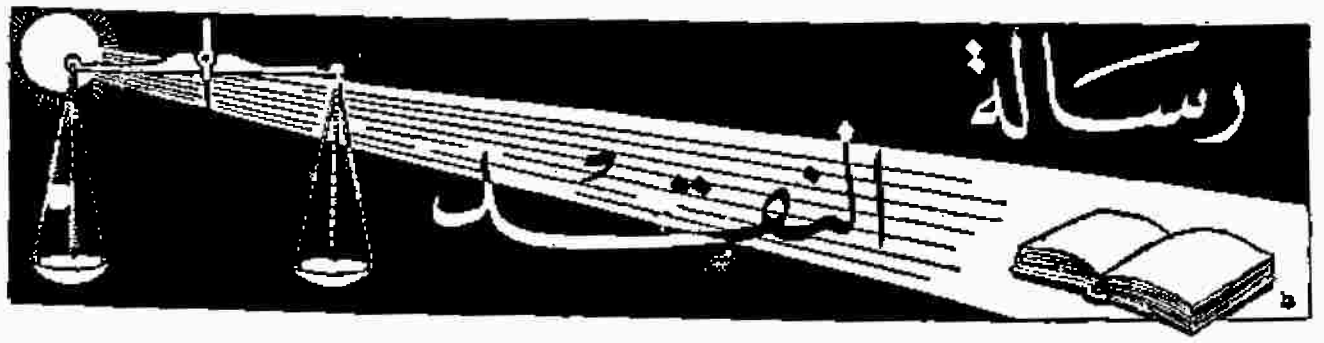

٦ - فى سبيل العربية

كتاب البخلاء

للأستاذ محمود مصطفى

هذا هو المقال السادس فى نقد عمل الأستاذين الكريمين العوامرى بك والجارم بك فى شرحهما لكتاب البخلاء للجاحظ . وما ندرى هل بلغنا رضاها فى هذا العمل ، وقد خدمنا به الكتاب خدمة إذا أضافاها إلى خدمتهما له خرج الكتاب تاماً مرجو الفائدة ؟

قد كان الرضا منهما هو الأشبه بخلقهما والأولى بحرصهما على الحقيقة ، ولكنى لا أسمع إلا حكاية امتعاض ولوم ، وما أظن إلا أن القارئ طالب فائدة ؛ فليس يهمه أن ننث عتابنا ونكثر اعتذارنا بين يديه ، فلنمض فيما نحن فيه مستعينين الله أن ننتهى من نقدنا فى هذا المقال إن استطعنا حتى نريح ونستريح

فى ص ١١٥ يقول الجاحظ فى تصوير جشع الحزامى : « إنه لو أعطى أفاعى سجستان ، وثعابين مصر ، وحيّات الأهواز لأخذها »

ويعلق الشارحان على الحيات والأفاعى والثعابين تعليقاً ينطق بأن الحيات هى الثعابين أو الأفاعى ، وأن الثعابين هى الحيات أو الأفاعى ، وأن الأفاعى هى الثعابين أو الحيات . وللشارحين بعض العذر فى ذلك ، فإن كتب اللغة يكثر فيها ذلك النوع من الإحالة فى التعاريف ، ولكنه عيب يجب ألا نقره نحن الذين سيكون على يدنا إصلاح كتب اللغة وتلافى عيوبها

إن الذى يحاول أن يتخلص من ذلك العيب يجد فى كتب اللغة نفسها المخلص منه . فى المقام نفسه الذى يقول فيه صاحب القاموس : الحية «م» أى معروف نجد كتباً أخرى ومواضع من القاموس نفسه يمكن أن نستخلص من ثناياها فروقاً نجرئنا أو تنجينا من التهافت

ذلك أننا نرى فى القاموس المحيط : الثعبان : الحية الطويلة الضخمة ، وفى المصباح : الأفعى : الحية الرقشاء الدقيقة العنق العريضة الرأس التى لا تزال مستديرة على نفسها لا ينفع منها ترياق.

فهذه تفرقة إذا كان الشارحان قد اتجها إليها فى شرحهما بانت قيمة كلام الجاحظ ، وأنه إنما كان يعنى أن هذا النوع فى مصر مشهور بالضخامة والطول وأنه فى سجستان على الصورة التى مثلها صاحب المصباح . وهكذا

على أنه لو لم تكن بين هذه الأنواع تلك الفروق التى ميزناها بها لصار فى كلام الجاحظ فضول يجب علينا أن نلتمس له العذر فيه ؛ إذ كيف يعطف هذه المترادفات ومعناها واحد لا يزيد ولا ينقص . إنه إذ ذاك يكون كلامه بمثابة قولنا ثعابين مصر وثعابين الأهواز وثعابين سجستان . فهل يرضى أحد منا للجاحظ بمثل هذا التهافت والتكرار المزرى ، إننى إزاء هذا أرى أنه كان من الواجب (لو لم أجد للجاحظ هذا المخرج من كتب اللغة) أن أقول إنه إنما كرر هذه الألفاظ ليدل على الترف الجارى فى هذه البلاد ، فهذا النوع فى مصر يسمى بالثعابين وفى سجستان بالأفاعى وفى الأهواز بالحيات . حينذاك يستريح القارئ وتبقى لبلاغة الجاحظ صورتها الجميلة التى له فى نفوسنا والتى يجب أن نحرص على بقائها كذلك

ص ١٢٩ ورد فى وصف الجارود وأبى الحارث جمين أنهما يمتحنان ما عند الناس بالكُلَف الشّداد

فيقول الشارحان فى ذلك ويمتحنان الخ أى ينزلان المحن بما عند الناس من المال بسبب هذه الكلف الصعبة . وأقول إن تفسير الامتحان بما فسراه به تكلف شديد جداً . وعندى أن الامتحان هو بمعناه المتبادر الذى يملأ عقول الطلبة والمعلمين خصوصاً فى هذه الأيام وهو الاختبار ، والمراد بامتحان ما عند الناس اختبار أخلاقهم ومعرفة مدى كرم نفوسهم

ص ١٣١ يقول الجاحظ : سئل جمين عن جود محمد بن يحيى فقيل له : كيف سخاؤه على الخبز خاصة ؟ قال : « والله لو ألقى إليه من الطعام بقدر ما إذا حُبِسَ نَزَفَ السحابِ ما تجافى عن رغيف »

ثم يقول الشارحان فى معنى ذلك : أى لو أعطى من الطعام مقداراً لو جعل كومة واحدة فارتفعت حتى وصلت إلى السحاب فنعت ماءه من أن يصل إلى الأرض ما تجافى الخ ، ثم يقولان بعد كلام : ووضع « إذا » فى العبارة غريب اهـ . والواقع أن وضعها على حسب شرحهما ليس غريباً إذ قد وقعت موقعها وتوافر فى العبارة شرطها وجوابها ، فكيف يكون وضعها غريباً إذا تم لها ذلك وقد جرى الشارحان فى شرحهما على اعتبار أصالتها بدليل أنهما استعاضا عنها فى الشرح بلو ...

ونحن نعترض على ضبط العبارة وشرحها ، فأما الضبط فنرى أنه كان ينبغى أن يكون هكذا :

« ... إذا حُبِسَ نَزْفَ السحابَ » . وأما المعنى فهو : لو قدم إليه من الطعام مقدار إذا جمع بعضه فوق بعض وصل إلى السحاب فاحتاك به وتشرب ماءه ، ما تسامح فى رغيف منه مع هذه الكثرة وقد تتكلف تصور ارتفاعه إلى السحاب . بل يكفى فى تمثيل كثرته أنه لو سقط عليه ماء السحاب لتشربه ، وعلى هذا يكون قوله : « ما تجافى رغيف » جواباً للو ، لا لأذا

(ص ١٥٢) فى الحديث عن مغرم أصحاب الدور يورد الشارحان عبارة الأصل هكذا :

« فإذا قسمنا الغرم عند انهدامها بإعادتها ، وبعد ابتنائها ، وغرم ما بين ذلك من مرمتها وإصلاحها ، ثم قابلنا بذلك ما أخذنا من غلاتها وارتفقنا به من كرائها خرج على المسكن من الخسران بقدر ما حصل للساكن من الربع » .

ويشرحان هذه العبارة المضطربة شرحاً يأتى مثلها مضطرباً . ولسنا بحاجة إلى بيان اضطراب الشرح وإنما نكتفى ببيان اضطراب الأصل فنقول: إن كلمة قسمنا لا موضع لها فى الكلام إذ القسمة تقتضى شيئاً يقسم ، ولسنا نرى هنا أقساماً فصلها القائل فى كلامه وإنما صواب الكلمة قسنا ، والقياس هو التقدير والحساب . وهنا قاس المتكلم غرم صاحب المنزل فى بنائه أولاً ثم إعادته بعد تهدمه ، بما حصل عليه من كراء فخرج القياس بخسران المالك وربح الساكن . كذلك نرى أن الواو فى عبارة «وبعد ابتنائها» مقحمة تفسد المعنى والصواب حذفها فكان ينبغى أن تكون الجملة هكذا

« فإذا قسنا الغرم عند انهدامها بإعادتها بعد ابتنائها ، وغرم ما بين ذلك من مرمتها وإصلاحها ثم قابلنا بذلك ما أخذنا من غلاتها وارتفقنا به من كرائها ، خرج على المسكن من الخسران بقدر ما حصل للساكن من الربع »

(بقية المقال للعدد القادم) محمود مصطفى

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الأديب

أبي العلاء المعرى

طرفة من روائع الأدب العربى فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبى العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة .

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة « الرسالة »

ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة